ديوان الوزير

محمد بن عبد الملك الزيات

نشره وقدم له الدكتور جميل سعيد

بقلم الأستاذ بدوي أحمد طبانه

يخيل لكثير من الناس أن إخراج كتاب أو نشره عمل يسير ، يستطيع أن ينهض به كل من يستطيع أن ينسخ ، ثم يستطيع بعد ذلك أن يقدم ما نسخه إلى المطبعة . هكذا يخيل لأكثر الناس ، وكذلك كان يخيل إليّ أيضاً قبل أن أبتلى بهذا اللون من الجهد العلمي ، حتى إذا كان ذلك تبين لي أن جهداً يبذل في نشر كتاب وتحقيقه دونه بكثير كل جهد يبذل في التأليف وإن كان عظيما ؛ لأن المؤلف صاحب الموضوع الذي يؤلفه ، اختمرت في رأسه فكرته ، وأعد له ما يعينه من المراجع . أما الناشر فما أكثر ما يصادف من عقبات لا يستطيع اجتيازها إلا الكفء الجلد ، وناهيك بعقبات التزييف والمسخ وما يقع فيه النساخ من أخطاء التصحيف والتحريف..

وفي المكتبة العربية نفائس لا يحصيها إلا الله ، ولكنها مطمورة في زوايا النسيان ، لا تصل إليها الأيدي ، ولا ينتفع الناس بما تحوي من علم وفن ، حتى يتاح لهذه النفائس من ذوي الغيرة من يأخذ بيدها فينفض عنها غبار السنين ، ويعم الانتفاع بها .

ونحن في نهضتنا الحاضرة محتاجون أشد الحاجة إلى بعث هذه الكنوز من مدافنها ؛ فإن في هذا البعث خدمة قومية إلى ما يؤديه من خدمات علمية أو فنية ، فإحياؤها فرض ليس لقادر عليه أن يكف عنه .

ولهذا لا يسعنا إلا أن نرحب بديوان الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، وإلا أن نشيد بفضل ناشره العالم الأديب الدكتور جميل سعيد أحد أساتذة الأدب في دار المعلمين العالية في بغداد ، الذي أضاف إلى الأدب ثروة فنية تمين الباحثين ومؤرخي الأدب بنشره هذا الديوان ، فعامة العلماء والأدباء يعرفون ابن الزيات كاتباً أكثر مما يعرفونه شاعراً ، وهم يعرفون كيف سما الأدب بابن الزيات حتى كان الوزير والمصرف للأمور في عصر من أزهى عصور الدولة العباسية ، ولم يكن له من الحسب أو الجاه ما يرشحه لهذا المنصب الخطير ، وهو زيات ابن زيات ، سوى الموهبة الأدبية .

وقد قدم الدكتور جميل الديوان بترجمة موجزة لحياة الرجل ووصف النسخة التي نقل عنها ، ثم ذكر في مقدمته عدة آراء في ابن الزيات وشاعريته استخلصها من شعره ، وأكثر هذه الآراء وفق فيه توفيقاً عظيما يشهد له بالأصالة والبراعة والحاسة الفنية المرهفة

وكان سر هذا التوفيق أن صاحبه كان صادقاً ، وكان ميزاناً عدلاً لنفسه ، ولصاحب الديوان الذي نشره ، فلم يفرط في تقريظه والتنويه به ؛ شأن كثير من الذين يعتدون بالموضوع الذي يدرسونه أو الشخصية التي يعالجون تحليلها ...

ومن أمثلة الإنصاف قوله عن الشعر الذي عثر عليه في ديوان ابن الزيات : إنه (لا يمثل حياة ابن الزيات كاملة . وربما كان له شعر لم يجمعه جامعه[1]) .

ثم تراه يقول : (إن أشعاره التي في ديوانه هذا لا تراها تضعه في مصاف الشعراء المطبوعين ، وتدلج الهجاء بينه وبين علي ابن جبلة ، والقارئ حين يقرؤه يجد الفرق واضحاً بين ابن الزيات وبين الشاعر المطبوع علي بن جبلة[2]) .

ومثل هذه الآراء سديد موفق ، ومبعث السداد والتوفيق — كما قدمنا — أن صاحبها كان صادقاً في قوله صدقه في إحساسه الفني .

ولكننا على الرغم من إعجابنا بهذه الآراء وتقديرنا للجهود الفنية التي بذلت في نشر الديوان ، لا نتفق مع الأستاذ الناشر في فهم معنى ما أورده ابن رشيق في العمدة نقلا عن الجاحظ في

(١) المقدمة « ب »
(٢) « « و »

قوله : « طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا تشبيه فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا يتقن إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات[1] » .

فقد فهم الدكتور جميل من هذه العبارة أن الجاحظ يفضل هذين وأضرابهما على سائر الشعراء تفضيلا مطلقاً ، وقد بنى على هذا الفهم مناقشة هذا الرأى فى قوله : (وبعد ، أفكان ابن الزيات من المكانة الشعرية بالمحل الذى ذكره به الجاحظ والصاحب وابن رشيق[2] .

إننا لا نستطيع أن نفهم هذا الفهم الذى تبادر إلى ذهن الدكتور جميل من هذه العبارة ، فإن سياق الكلام يدل على أن البحث فى فهم الشعر ، وتذوقه ، ونقده ، ومعرفة ما يسمو به وما يتضع .

يريد الجاحظ أن يقول : إنه لا يفهم الأدب — ومنه الشعر — إلا الأدباء ، وأما هؤلاء الأعلام الذين رددوا أسماءهم فهم علماء كل فى ناحيته التى يجيدها : فالأصمعى يحذق معرفة الغريب من ألفاظه اللغوية ، والأخفش رجل نحوى لا يعرف إلا الإعراب ، وأبو عبيدة قد تخصص فى معرفة السير وأيام العرب وأنسابهم . أما المتذوقون للشعر القادرون على نقده من الناحية الفنية فهم طائفة الأدباء الكتاب .

ودليل آخر يؤيد ما نذهب إليه فى فهم هذه العبارة هو قول الجاحظ فى أولها : (طلبت علم الشعر ..) والجاحظ عالم أديب يعنى ما يقول ، ويستطيع أن يفرق بين الشاعر وبين العالم بالشعر

ولو أراد الجاحظ الموازنة بين الشعراء لم ينته ، وهو الخبير ، أن يذكر أسماء فحول الشعراء لا أساطين العلماء .

ودليل ثالث : هو أن الباب الذى عقده ابن رشيق قد جعل له عنواناً (باب فى التصرف ونقد الشعر[3]) ونحن مضطرون لأن نورد من هذا الباب ما يؤيد قولنا .

(١) المقدمة « ا » والعمدة : ج ٢ ص ٨٤ مطبعة السعادة ١٩٠٧
(٢) المقدمة « و »
(٣) العمدة : ج ٢ ص ٨٣

حكى الصاحب بن عباد فى صدر رسالة صنعها على أبى الطيب ، قال : حدثنى محمد بن يوسف الحادى ، قال : حضرت بمجلس عبد الله بن طاهر وقد حضره البحترى فقال : يا أبا عبادة أمسلم أشعر أم أبو نواس ، فقال : بل أبو نواس لأنه يتصرف فى كل طريق ويبرع فى كل مذهب إن شاء جد وإن شاء هزل ، ومسلم يلزم طريقاً واحداً لا يتعداه ، ويتعلق بمذهب لا يتخطاه . فقال له عبيد الله : إن أحمد بن يحيى ثعلباً لا يوافقك على هذا ، فقال : أيها الأمير ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله ، فإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه ، فقال : وربت بك زنادى يا أبا عبادة ! إن حكمك فى عميك أبى نواس ومسلم ، وافق حكم أبى نواس فى عميه : جرير والفرزدق ؛ فإنه سئل عنهما ، ففضل جريراً ، فقيل : إن أبا عبيدة لا يوافقك على هذا ، فقال ليس هذا من علم أبى عبيدة فإنما يعرفه من دفع إلى مضايق الشعر !

والخلاصة أن الجاحظ والصاحب وابن رشيق لم يفضلوا ابن الزيات وابن وهب وغيرهما من الكتاب على الشعراء فى إحكام صنعة الشعر ، وإنما فضلوهم على العلماء فى نقد الشعر .

وإن أردت المزيد فاقرأ قول ابن رشيق فى باب آخر أسماه : (باب فى أشعار الكتاب) قال : « وليس يلزم الكاتب أن يجارى الشاعر فى إحكام صنعة الشعر لرغبة الكتاب فى حلاوة الألفاظ وطلاوتها ، وقلة الكلفة ، والإتيان بما يخف على النفس منها . وأيضاً فإن أكثر أشعارهم إنما يأتى نظرفاً لا عن رغبة ولا رهبة فهم مطلقون مخلون فى شهواتهم ، مساعون فى مذهبهم إذ كانوا يصفون الشعر تخيراً واستظرافاً[1] » .

ولنا بعد هذه الملاحظة ملاحظة أخرى تلك هى مسألة القوافى وترتيبها فى الديوان ، فقد سلك فى بعضها مسلكا غير المتفق عليه عند المرزوقيين وعلماء القافية ، ووضع بعضها فى غير موضعه ، وقد يعتذر عنه بأنه نقل القاب القوافى وترتيبها كما وردت فى الأصل الذى اعتمد عليه ، ونقل عنه .

وهذا الخطأ فى أول الديوان وفى أواخره . من ذلك أنه جعل الشعر الذى أوله :

من يكن رام حاجة بعدت عنه ... وأعيت عليه كل العياء

(١) العمدة ج ٢ ص ٨٨

والذى أوله :

جمع الله للخليفة ما كا ... ن حواه لسائر الخلفاء

من قافية الألف ، وهى ليست كذلك ، وإنما القافية الهمزة والقصائد تنسب إلى الحرف الذى بنيت عليه ، وهو الروى ، فيقال قصيدة دالية أو رائية أو ميمية وهكذا إذا كان الحرف الذى بنيت عليه دالا أو راء مثلا ، أما الألف هنا فهى ردف والردف هو حرف مد قبل الروى .

ومن هذا أن فى الديوان خلطاً عجيباً فيما سماه قافية الهاء فقد جعل منها كل شعر آخره هاء ، وإن لم تكن الهاء روياً ، فى :

ما أعجب الحب فى مذاهبه ... ما يقضى القول فى عجائبه

القافية الباء لا الهاء ، وقوله :

وعاتب عابنى بشيب ... لم يغد لما ألمّ رقشه

قافيتها التاء لا الهاء وفى :

ظالم ما علمته معتد لا عدمته

كتلك ، وفى :

يا يمن يومى وغده ... ويمن ما بعد غده

القافية الدال لا الهاء . والقصيدة التى أولها :

يا ذا الذى لا أهجره ... وعلى القلى لا أغدره

قافيتها الراء لا الهاء ، والتى أولها :

أبكى الفتى بعد الخليط مريبه ... وكاد وجد القلب منه بمصرعه

قافيتها العين ، ومثلها :

قولا لأنف وقزعه ... أخطا كما وزن سبعه

والقصيدة التى كتبها إلى الحسين بن للرزبان النحاس :

فديتك إن ابتاطى إليـ ... ـك على بأخلاقك الطاهرة

والتى أولها :

ألا من عذير النفس ممن يلومها ... على حبها جهلا ألا مَن عذيرها

كلتاها هائية القافية . ومن قافية الفاء قوله :

من العين طرفه ... ومن الظبى ظرفه

وقوله :

قل لعيسى أنف أنفه ... أنفه ضعف لأنفه

وقوله :

إن الخلافة أصبحت سراؤها ... بحلوبة وشرورها مصروفه

ومن قافية اللام :

أخنى علىّ الدهر كلكله ... وعدا (على) عيشى فبدله

ومن قافية النون :

نزلت بالخائنين سنه ... سنة للناس محتمة

وقوله :

ما للغوانى من رأين رأسه ... بقفاً ملثن وصاله وشنينه

ومن قافية الميم :

سقيا لنضر الوجه بسّامه ... مهذب الوالد قمقامه

ومن قافية الياء :

وللنفوس وإن كانت على وجل ... من المنية آمال تقويها

وقوله .

ما باله وابنه لم يزوجا عربيه

وقوله :

الآن قام على بغداد ناعيها ... فليبكها لخراب الدهر باكيها

وقوله :

إنك حى بحيث يطرد النا ... ظر من تحت ماء دمعتيه

والماء فى كل أولئك القصائد التى ذكرنا مطالعها إنما هى وصل سمى بذلك لوصله بالروى ، والوصل كما عرفه علماء القافية حرف لين ناشئ من إشباع حركة الروى أو هاء تليه .

وأعتقد أن مثل هذا الأمر لا يخفى على فطنة الأستاذ الصديق الأديب ، وأعتقد أيضاً أن العجلة وحدها هى التى فوتت عليه الإشارة إلى الأخطاء التى وقع فيها جامع الديوان فى الشروح والتعاليق التى ذيل بها على شعر ابن الزيات .

وبعد ، فهذه هنات هينات ، لا تنقص بحال من قيمة العمل الأدبى الجليل الذى اضطلع به الأستاذ الأديب .

بروى أحمر طيار

ظهر حديثا

وحى الرسالة